ورقة من تاريخ الاستشراق في المانيا:

جيورج ياكوب (١٨٦٢-١٩٣٧)

بقلم انا ماري شيمل

توفى المستشرق الكبير جيورج ياكوب حينما بدأت أتعلم العربية، ومع ذلك كانت تربطني به أكثر من علاقة روحية: فعلى يديه نال أستاذى الأول فى اللغات الأسلامية، هانس إيللنبرج Hans Ellenberg، درجة الدكتوراه برسالة أعدها عن الفنون والصناعات عند القزوينى؛ وعلى يديه أيضا نال أستاذى الذى حضرت عليه الدكتوراه، ريشارد هارتمان Richard Hartmann، درجة الأهلية للتدريس فى رحاب الجامعة. ومن هنا أستبيح لنفسى أن أدون نبذة عن حياة وأعمال هذا المستشرق العالم الذى كان له الفضل الأكبر فى شق آفاق جديدة كل الجدة على مناهج الدراسات الشرقية فى ألمانيا حتى مطلع القرن. وإنى لأستند فى هذا المقال على دراسة نشرها «إنوليتمان» فى دورية جماعة المستشرقين الألمان بمناسبة ذكرى وفاة صديقه ورفيق علمه.

وحتى نتفهم موقف ياكوب لابد أن نعلم أن الثقافة الاغريقية والرومانية كانت لا تزال المعيار الحضارى الوحيد المعترف به فى ألمانيا حتى أوائل هذا القرن، وكأن ماعداه لا يستحق العناية!

كما كان يوجد بين المستشرقين تيار لا يهتم إلا بالأبحاث والدراسات اللغوية البحتة، دون التفكير بالانجازات الحضارية للإسلام (وكما كان يقال «فقد كانت عائشة بالنسبة لهم لا تتعدى كونها اسم فاعل موئنث من الفعل الثلاثى عاش») وكان علماء اللغات السامية يحاولون اكثر فأكثر سبر أغوار طبقات تاريخ اللغات السامية. وتصدى ياكوب لهذين الاتجاهين بكل ما لديه من طاقة؛ لا بل إنه مضى فى مقاومته إلى حد نشر مقالة له بعنوان «التعصب للكلاسيكية على نهج حفارى قبور الثقافة الألمانية»، ولم يتورع عن استخدام أقسى العبارات ضد بعض زملائه الذين اشتغلوا، على ما قال، «بوضع اللغات السامية فى عصر الجليد». أما بالنسبة له فكانت تصح هذه الحقيقة:

«إن مقياس علم خليق بالحياة يتوقف دوماً على مدى ما يقدمه هذا العلم بطريق غير مباشر من فائدة للمجال العملى أيضا» — كما كتب عام ١٩١٧.

ولد ياكوب فى السادس والعشرين من مايو عام ١٨٦٢ فى مدينة كينكزبيرغ Königsberg، وفقد والده فى سن مبكرة. والغالب أنه ظل يعيش فيما بعد مع أمه وأخواته دون أن يفكر فى الزواج. وبدأ ككثير من معاصريه بدراسة علم اللاهوت والاستشراق؛ ثم ما لبث أن اتجه بصورة أقوى لدراسة علوم اللغات الألمانية وعلم أخلاق الشعوب بدلا من اللاهوت. وكان تيودور نولدكه استاذه فى ستراسبورغ؛ وعلى يدى هاينريش ليبرشت فلايشر، العالم النحوى الكبير، تعمق فى دراسة النحو العربى. ثم نال الدكتوراه تحت إشرافه عام ١٨٨٧ ببحث رسم معالم اهتماماته المستقبلة وهو: «تجارة العرب الشمالية البلطيقية». وكان قبل ذلك بعام واحد قد نشر مقالة عن السلع التجارية التى كان يشتريها العرب من البلاد الشمالية البلطيقية، وذكر فى ذلك بوجه خاص حجر الكهرباء الذى كان ذا قيمة كبيرة بالنسبة للعرب. ثم اهتم بدراسة العلاقات بين البلاد العربية وألمانيا فى صيغ دائمة التجدد؛ ومن أخصب أعماله المقالات التى نشرها حول «رواية عربى عن فولدا وشليزفيج وزوست وپادربورن ومدن ألمانية اخرى»، التى نشرت لأول مرة عام ١٨٩٠، ثم وسعت وزيد عليها وأعيد طبعها عدة مرات حتى عام ١٩٢٧، وما زالت حتى اليوم عظيمة الأهمية لدراسة الاوضاع الألمانية فى العصر الوسيط.

ومن بين هذه الدراسات الشرقية — الغربية أيضاً محاضرته

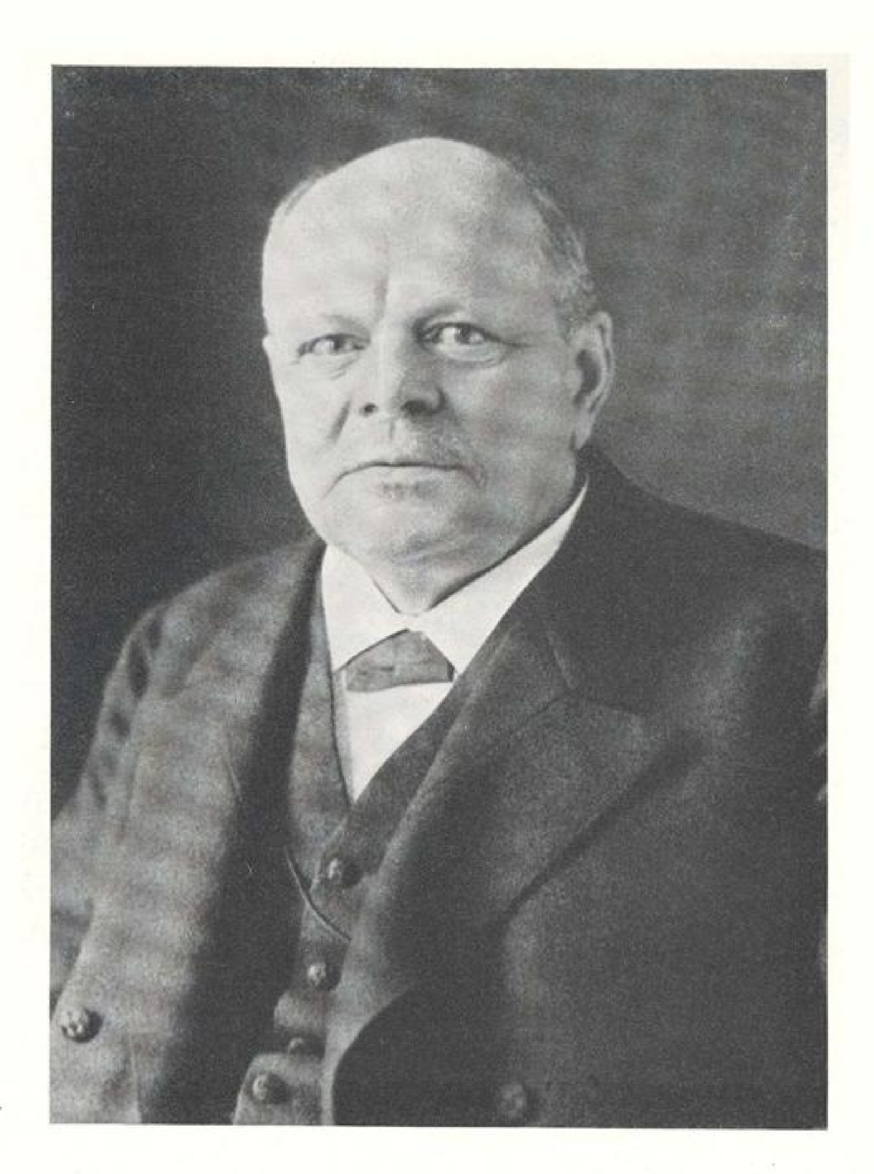
حول «العناصر الثقافية الشرقية فى الغرب» عام ١٩٠٢، وكذلك كتابه الذى صدر بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة، والذى يرجع ويشار إليه اكثر من جميع مؤلفاته الأخرى وهو: «تأثير الشرق على الغرب، وخاصة خلال العصر الوسيط». وعلى هذا الكتاب تستند فى كثير أو قليل جميع الابحاث والمؤلفات التالية التى تعالج موضوع تأثيرات الشرق الحضارية على الغرب.

وبعد أن حصل ياكوب على درجة الدكتوراه فى لايبزغ، راح يعمل فترة من الزمن فى مكتبة الدولة فى برلين، ثم قدم بحث درجة الكفاءة للتدريس فى السلك الجامعى فى كرايفزڤالد تحت إشراف آلڤارد، مؤلف الفهارس الكبيرة الخاصة بالمخطوطات العربية فى برلين والعالم الضليع الممتاز بالشعر العربى القديم وتاريخ العهود الإسلامية الأولى. وقد يكون من المحتمل أنه اتجه بتأثير من آلڤارد إلى دراسة الشعر العربى القديم؛ وتلا بحثه «دراسات للشعراء العرب» عام ١٨٩٣ مؤلف يعتبر أساسياً فى ميدانه وهو «الحياة البدوية فى ضوء الشعر الجاهلى». ويقدم هذا العمل الذى وسع وغير وزيد عليه عدة مرات لوناً جديداً تماماً فى الاستشراق الألمانى (ولذا فقد قام عدد من زملائه بتقريضه ونقده بتجريح لا رحمة فيه) إذ حاول ياكوب فى هذا البحث لأول مرة أن يستخرج من الشعر الجاهلى معلومات عن طريقة حياة البدو ومعيشتهم. فبالنسبة له، لم يكن الشعر الجاهلى كنزاً للكلمات النادرة والأشكال النحوية الغريبة، وانما مرآة تنعكس فيها طريقة حياة حلقة حضارية قد تبدو لأول وهلة شديدة الغرابة بالنسبة لنا. وبطريقة مشابهة قام عام ١٩٠٦ بوصف خمارة فارسية مع كل ملحقاتها فى العصر الوسيط كما تبدو من خلال أشعار حافظ الغزلية. وحتى إذا أكد اليوم بشكل أقوى على الطابع الثابت الرتيب للشعر الجاهلى بحيث لا يعتبر انعكاساً للواقع بالقدر الذى فعله ياكوب، فان مما لا شك فيه أنه من خلال الوصف والتعابير التى يزخر بها الشعر الجاهلى — كوصف مواقد النيران، والخيام وتوابعها وأثاثها، وأحمال قوافل الجمال — يمكن اكتساب عدة تفاصيل قيمة، ذات أهمية قصوى بالنسبة لعلم أخلاق الشعوب. وبعد كتاب «حياة البدو فى الجاهلية» عام ١٨٩٧، تلت فى فترة متأخرة دراسات عن الشنفرى الذى حاول ياكوب أن يقلد لاميته بالشعر الألمانى — ولكنه بطبيعة الحال لم يلق النجاح الذى حققه روكرت من قبله. ومع ذلك فكثيراً ما كان ياكوب يهتم بنظم قصائد يقلد فيها الشعر الشرقى، سواء كان عربياً أم فارسياً أم تركياً.

ومن كرايفزڤالد اتيحت لياكوب الفرصة للسفر إلى تركيا، حيث استيقظ اهتمامه بالتركية، وكتب لهذا الاهتمام أن يعطى ثماراً خصبة فيما بعد. وفى عام ١٨٩٦ ذهب كمدرس جامعى إلى هاله Halle وأصبح هناك فى الوقت نفسه أميناً لمكتبة جمعية المستشرقين الألمانية. وفى عام ١٩٠١ استدعى ليحتل كرسياً جامعياً فى ايرلانجن، ثم انتقل عام ١٩١١ إلى كيل حيث بقى يعمل فيها حتى وفاته.

وفى استانبول اتيحت لياكوب فرصة مشاهدة ألعاب الظل أثناء شهر رمضان، وكانت تركيا تمتاز آنذاك بهذه الألعاب. وبدا هذا الفن لياكوب، العارف الخبير بالفن المسرحى الأوروبى والمعجب الكبير بمسرحيات شيكسبير، ذا سحر خاص، بحيث بدأ يهتم فى بحث تاريخ العاب الظل، التى فتنته كثيراً، لأنها لم تقتصر على بلد واحد بل شملت الشرق بطوله وعرضه. أما امتيازه الخاص فى هذا الميدان فهو اكتشافه لألعاب ظل للمؤلف المصرى ابن دانيال (المتوفى عام ١٣١١)، الذى قدم عام ١٩٠١ أولى المعلومات عنه. وكان يدرس ويفحص المخطوطات القليلة الخاصة بهذا النوع من الأدب بكل دقة وعناية، وكان يعيد الدراسة والتدقيق دوماً، رغم أن المتن كان يحتوى على صعوبات يكاد يكون من المستحيل التغلب عليها. واستطاع عام ١٩١٠ أن ينشر عينات متفرقة من هذه الأعمال وأن يعرف العالم على «طيف الخيال». وفى العام نفسه كتب استناداً إلى ما كانت تحتويه تلك النصوص حول «سوق سنوية مصرية فى القرن الثالث عشر». وإذ أدرك ياكوب أن ألعاب الظل أو طيف الخيال فى البلاد الإسلامية لا يمكن أن توجد دون نماذج جاءت من الشرق الأقصى، فقد راح يدرس تقاليد الهند والشرق الاقصى فى هذا الميدان، وتعلم فى سن متقدمة السنسكريتية والصينية، ليتمكن من متابعة دراسة هذا الفن. وكان أول عمل كبير وشامل نجم عن دراساته الطويلة كتابه «تاريخ مسرح ألعاب طيف الخيال فى الشرق والغرب» الذى صدر عام ١٩٢٥ فى طبعة ثانية موسعة. وبالاشتراك مع پاول كاله Paul Kahle استمر على دراسة وبحث أعمال ابن دانيال وساهم فى تأليف مقالات لأبحاث كاله عن العاب طيف الخيال العربية، كما أصدر عام ١٩٣٠ مؤلفاً عن ألعاب الظل الهندية.

وكما واجه جيورج ياكوب مسألة مسرح الظل لأول مرة فى تركيا، فقد كرس لمسرح الطيف التركى كتاباً خاصاً عرف الألمان فيه لأول مرة على قصص كاراغوز الهزلية الشعبية المحبوبة — وهو عمل تابعه هلموت ريتر بطريقة


جيورج ياكوب

نموذجية. ولكى يتصور الانسان مدى الجهد المبذول فى هذا الانجاز، فلا بد له أن يفكر بأن الدراسات التركية قلما كانت تجد مكاناً لها فى حقول العلم فى الجامعات الألمانية فى مطلع القرن الحالى. وإنه لعمل ياكوب الكبير وامتيازه الخاص أن يتمكن من ايقاظ الاهتمام بتركيا العثمانية وجميع اوجه ثقافتها. وهنا – كما كان الأمر فى العربية – اتسع ميدان اهتماماته اتساعاً مدهشاً؛ فقد كان اهتمامه بالغاً بالنحو التركى وبضرورة إعداد كتاب مساعد لتدريس اللغة العثمانية، وقد تعلمنا من كتابه المساعد – بين كتب أخرى – قراءة التمارين الأولى باللغة التركية العثمانية. إذ يضم كتابه قصصاً خرافية واشعاراً صوفية ونماذج باللهجات العامية ونصوصاً كلاسيكية بحيث يقدم للمبتدئ عرضاً جيداً ومختارات طريفة من الأدب التركى. وكما هو الحال فى كل أعماله فقد ظهر هنا ايضاً حب جيورج ياكوب لكل ما هو شعبى – إذ كان أول من شرح وحلل خطب القصاصين والمداحين الأتراك. ومن صفاته المميزة أنه لم يتردد فى الحرب العالمية الأولى، عندما كانت ألمانيا وتركيا تحاربان جنباً إلى جنب، لم يتردد فى تاليف معجم مساعد لرجال البحرية والممرضات، حيث كان فى تلك الأعوام منهمكاً إلى حد بعيد فى الدراسات التركية عموماً. ومع ذلك فانه لم يهمل العربية قطعاً بل إنه كان يحاضر كذلك فى مسائل تتعلق بالعهد القديم .. ومن أعماله الكبيرة أيضاً احياء «المكتبة التركية»، وهى تلك المجموعة من النصوص والدراسات الخاصة بتاريخ الإسلام الحضارى والتى تشتمل على اكثر من خمس وعشرين دراسة هامة منذ عام ١٩٠٤. وقد نشرها وحده أولا، ثم اشترك فى ذلك مع المستشرق السويسرى رودلف تشودى R. Tschudi فيما بعد، واخيراً معه ومع المستشرق الكيلى

اللاحق تيودور منزل Th. Menzel، الذى تابع اعمال ياكوب حول المسرح التركى بنجاح كبير. وفى هذه السلسلة ظهر ذلك الكتاب الذى عرف الألمان لأول مرة على إحدى الطرق الإسلامية؛ ونعنى به دراسته للطريقة البكتاشية (١٩٠٨). ويعتبر هذا الكتاب عملا طليعياً حقيقياً، إذ لم يكن احد يعرف حتى ذلك الحين أى شىء عن تكوين الطرق الإسلامية وتاريخها؛ والبكتاشية بالذات – التى لعبت فى تركيا دوراً كبيراً جداً نظراً لارتباطها بالانكشارية – تتمتع بأهمية كبرى فى ميدان علم أخلاق الشعوب وكذلك فى دراسة تاريخ الأديان، فقد بقيت فيها عدة عناصر غير اسلامية، كما أنها تحمل معالم شيعية كثيرة. وحتى اليوم يعرف كل تركى القصص الكثيرة التى تدور حول إجابات شيوخ البكتاشية التى تمتاز بحضور البديهة وسرعة الخاطر. وبهذا العمل افتتح ياكوب دراسة التصوف الشعبى فى الإسلام؛ وإن قيامه بعد ذلك ببضعة أعوام بضم كتاب ريشارد هارتمان البديع «عرض القشيرى للتصوف» إلى المكتبة التركية، ليظهر مدى اهتمامه أيضاً بالتعريف بالأسس النظرية للتصوف الإسلامى فى قالب واضح سهل القراءة والفهم فى اوروبا.

وكما أبدى ياكوب اهتمامه منذ دراساته الأولى بالقضايا الموضوعية بعينها رافضاً أى رأى لا مبرر له حول المسائل اللغوية البحتة، فقد جذبه الفن ايضاً بجميع اشكاله – ابتداء من الفن المسرحى، الذى سبق أن ذكرناه اعلاه، حتى فن العمارة والبناء. ومما لاشك فيه أيضاً أن المتعة الفنية الخالصة قد لعبت دوراً هاماً كذلك فى انشغاله الطويل بدراسة هياكل ورسوم ألعاب الطيف الصينية. وكان الفن الاسلامى فى تلك الأعوام لايزال ميداناً مجهولا إلى حد بعيد، بحيث لم يحصل إلا تحت إدارة فيلهلم فون بوده W. v. Bode على مكان فى معرض الفنون العام لمتاحف برلين. ولم يبدأ التفهم الجديد للفن الاسلامى فى ألمانيا إلا بعد افتتاح المعرض الكبير لروائع أعمال الفن الإسلامى فى ميونيخ عام ١٩١٠. وكان ياكوب أيضاً هو الذى اشتغل فى البيان الايضاحى على الفن السلجوقى والفن التركى والفن الاسلامى فى الهند – وكان كل من هذه الموضوعات جديداً تماماً ولم يخضه أحد بعد عملياً. ولكن هذا العالم الذى لا يعرف الكلل كان قبل ذلك قد نشر، فيما يتعلق بدراساته عن العلاقات الثقافية بين الإسلام واوروبا، كان قد نشر عام ١٩٠٥ دراسة حول انتقال الأقواس المدببة والأقواس الشبيهة بحذوة الحصان فى فن العمارة، ويعتبر أمراً محتملا أن القوس المدبب الغوطى قد تأثر بالقوس الإسلامى (كما يظهر مثلا فى مسجد ابن طولون فى القاهرة). وإذا لم يعد ياكوب بنفسه إلى تناول هذا الحقل فيما بعد إلا نادراً – وكان خبيراً ممتازاً بالطنافس الفارسية – فقد كان يشجع كثيراً من طلابه على الاهتمام بمسائل الصنعة اليدوية، كما يرد ذكرها وتعرض فى المصادر الإسلامية. فقد كان ياكوب نفسه يتمتع بطبيعة فنية قوية، وكان «رومانسياً ناقداً»، كما وصفه كارل هاينريش بيكر فى مقالته التقديرية الجميلة بمناسبة ذكرى عيد ميلاد ياكوب الخامس والسبعين. وقاده ذلك الميل الفنى كذلك إلى موضوع يتعدى حدود ألعاب الطيف والأساطير – إلى موضوع الأحلام: فدراساته حول الأساطير والأحلام التى صدرت عام ١٩٢٣ – ١٩٢٤ فى هانوفر تعطى الدليل على مدى انجذابه لهذا الحقل الجانبى ما بين الواقع الملموس وما فوق العالم الحسى – وكثيراً ما فسر المفكرون والمؤلفون الإسلاميون لعبة طيف الخيال كرمز لعمل اللاعب الخفى، الله، على ما يقول ابن الفارض.

لقد كان كل ما كتبه ياكوب متجهاً إلى الحياة، فى جميع مظاهرها وأشكالها المختلفة. وسواء أعالج مؤلفات العرب الجغرافية، أم كتب حول ما نشر حديثاً عن فلسطين، وسواء أدرس النحو التركى، أم نشر أشعار سلطانين تركيين، وسواء أترجم اشعاراً صوفية فارسية الى الشعر الألمانى، أم استخرج منها معلومات عن الحياة فى ايران فى العصر الوسيط – كان فى كل ذلك يبدى اهتمامه الدائم بكل ما هو نابض بالحياة. ومع أنه لم يسافر كثيراً، وكان يستقى شروحه فى الغالب من اختباراته الخاصة، إلا أن استعداده اللغوى الممتاز كان يعطيه سنداً وقوة كبيرين هنا. وقد دعاه بيكر فى مقالته التقديرية المذكورة أعلاه «بذى الفتوة المنفرد فى ميدان العلم» – رجل لم يكن من السهل دوماً الاتفاق والتعامل معه، إذ كان يعرب عن آرائه فى الغالب بخشونة ودون أى مراعاة؛ ولكن بيكر أكد كذلك على أن ياكوب كان يتمتع بمقدرة نادرة على رؤية العلاقات التاريخية الكبيرة وعلى الانغماس فى تقشف فى استقصاء وبحث التفاصيل بكل جهد وعناية. ولم يشتمل افقه على العالم الشرقى من الصين عبر الهند إلى البلاد الاسلامية فحسب، بل تناول كذلك دراسة الفولكلور والادب الأوروبى؛ ولكى يدعم دراساته جيداً فقد كان يهتم كذلك بالعلوم الطبيعية والمسائل المتعلقة بها. وكان يعيد النظر دوماً على دراساته ويعيد العمل عليها، ويكيفها إلى أحدث مستوى علمى، ولكن مما يؤسف له

Kiel 16. 10. 1931
Feldstr. 117 I.

Sehr verehrtes Fräulein Doktor,

Heute möchte ich Ihnen nur für Ihre Arbeit und Ihren freundlichen Brief herzlichst danken, da ich meine Au- gen schonen muss. Das Beduinenleben hat mir in jüngeren Jahren so viel Gemeinheit eingetragen, dass ich oft bedauert habe, es geschrieben zu haben. Hätte ich statt dessen ein Buch über den Zustands=Akkusativ zur [illegible] oder ähnlichen Schwindel verfasst, so hätten mir der größte [illegible] des Kontinents [illegible] und Geistesverwandte, die nicht begreifen können, daß historische und logische Entwicklung sich niemals decken, wahrscheinlich zugejubelt; aber damit war mir nicht gedient. So bin ich über das Türkische zum Indischen und schließlich zum Chinesischen

رسالة بعث بها جيورج ياكوب إلى الدكتور إلزه ليشتنشتيتر Ilse Lichtenstadter، وكانت قد بعثت إليه ببحثها الذى حصلت به على الدكتوراه وعنوانه «النسيب فى الشعر العربى القديم». وفى هذه الرسالة يكيل ياكوب اللعنة على عالم اللغات السامية بريتوريوس Prätorius (توفى ١٩٢٧) ملقبا إياه بـ «أكبر تيس أخرق فى القارة».

zukommen. Als Gegengabe erlaube ich mir einen
erweiterten Vortrag „Märchen und Traum" zu
übersenden; wenn Sie meine Schwänke-Studien:
(Sitzungsberichte der Bayer. Akad. 2 Hefte) nicht be-
sitzen, sende ich Ihnen gern auch von diesen
1 Exemplar. Meine Bemühungen für eine Neu-
bearbeitung meines Beduinenlebens, für die ich
viel Material gesammelt habe, einen Verleger
zu finden, waren länger als ein Jahrzehnt hindurch
vergeblich, so daß ich die Lust weiter zu sammeln
verlor und den Plan nach dem Kriege endgültig
aufgab. Es würde mich interessieren zu erfahren,
welche wissenschaftlichen und sonstigen Pläne Sie für
die Zukunft haben. Mit nochmaligem Dank

Ihr erg.

Georg Jacob

نشكر الأستاذة الدكتور إلزه ليشتنشتيتر، بجامعة هارڤارد (كمبردج ماساتشوستس) لاطلاعها إيانا على الرسالة المذكورة وسماحها لنا بنشرها.

أنه كان يوزع أغلب نشراته العلمية فى آخر سنى حياته فى عدد محدود من النسخ المطبوعة بالآلة الكاتبة. وكانت صفة الشمول والكلية التى امتاز بها تمتد لتتناول أبعد الميادين وأقصاها، ونشعر فى جميع أعماله بطابع شخصيته القوية العنيدة. ولقد شق الطريق إلى دراسة الشرق الإسلامى دراسة تمتاز بطابع تاريخى حضارى وكذلك فولكلورى، مكافحاً فى ذلك ضد العقلية اللغوية الضيقة القديمة، وكذلك ضد الاتجاه المتحجر فى الدراسات السامية فى عصره، ويمكن أن نلمس مدى نفوذه وأثره العلمى فى مؤلفات كثيرين من أصدقائه وتلامذته واعمالهم. ولعله كانت تكمن وراء جميع أعماله الرغبة «فى التفهم العلمى لصيرورة الشعر»، أو بعبارة آخرى، تخطى ذلك الحد الذى يفصل بين العلم والفن. فقد كان ذلك الميدان الجانبى الجذاب المثير، حقل أبحاثه الخاص. وما أجمل قوله فى كتابه «الاساطير والأحلام»: «إن الحلم هو شعر لا واع. والحالم يبدع مسرحية، تظهر فيها شخصيات يفرض عليها أدوارها. وتبدأ الحكاية الاسطورية صيرورتها بنقل تجربة الحلم إلى حالة الوعى.»

ألا يشبه بذلك الصوفيين الاسلاميين الذين يولون الاحلام دوراً كبيراً والذين كانوا دوماً يشيرون إلى الحد المتأرجح بين العالمين؟ وبهذه الصورة ينطق دوماً الشاعر التركى كشترى، الذى يرجع إلى غزله فى لعب الكارا غوز منذ زمن طويل لتفسير اللعب تفسيراً صوفياً (وكان ياكوب فى الحقيقة أول من درس ألعاب الكارا غوز دراسة علمية)؛ وبهذه الصورة أيضاً ينطق أعظم مغن فى التصوف العربى بطريقته الخاصة التى لا يمكن تقليدها، ونعنى به ابن الفارض:

فطيف خيال الظل يهدى اليك فى
كرى اللهو ما عنه الستائر شقت
ترى صور الأشياء تجلى عليك من
وراء حجاب اللبس فى كل خلقه.

ترجمة: محمد على حشيشو

